المحور الرابع

المشاركة والمبادرة

## العمل معًا لدرء التدخلات الخارجية

# العملُ معًا لدرءِ مخاطرِ التفكُّكِ والانقسامِ

مصطفىٰ عثمان إسماعيل(*)

١- مدخلٌ:

يسرُّني في مُفتتَحِ كلمتي أنْ أحيِّيَ العلماءَ والمفكِّرينَ والخبراءَ والباحثينَ الذينَ يؤمُّونَ هذا المؤتمرَ الهامَّ في هذهِ المرحلةِ التاريخيَّةِ الَّتي يمرُّ بها العالمُ.

والتحيَّةُ ممتدَّةٌ للأزهرِ الشريفِ، ولشيخِه الإمامِ الأكبرِ الدكتورِ أحمدَ الطيِّبِ رئيسِ مجلسِ حكماءِ المسلمينَ، ولعلماءِ الأزهرِ وشيوخِه وطلابِه وأساتذتِه والعاملينَ فيهِ.

وتحيَّةٌ خاصَّةٌ للقائمينَ علىٰ أمرِ المؤتمرِ تفكيرًا وتحضيرًا وإخراجًا؛ فالمؤتمرُ يكتسبُ أهميَّتَه منْ حيثُ العنوانُ والزمانُ والمكانُ، فما يَشهَدُه العالمُ اليومَ من دمارٍ واقتتالٍ واحترابٍ، نتيجةً لفشلِ التعايشِ في داخلِ الوطنِ الواحدِ وفي الإقليمِ وعلىٰ المستوىٰ الدَّوليِّ، يؤكِّدُ علىٰ أهميَّةِ العنوانِ والزمانِ، وأن يكونَ المكانُ هو الأزهرَ

الشريفَ، قلعةَ الوسطيَّةِ والاعتدالِ على مرِّ التاريخِ -يؤكِّدُ على حُسنِ اختيارِ المكانِ.

بعدَ ثوراتِ الشعوبِ العربيَّة الَّتي سُمِّيتْ بالربيعِ العربيِّ أصدرتُ كتابي بعنوانِ: «الربيعُ العربيُّ ثوراتٌ لم تكتملْ بعدُ»، نبهتُ فيهِ إلى خطورةِ انحرافِ هذه الثوراتِ واختطافِها من قوىً لا تريدُ لبلادِنا الأمنَ والاستقرارَ.

ثمَّ نشرتُ مقالًا في مجلةِ الديمقراطيَّةِ الَّتي تصدرُ في القاهرةِ بعنوانِ: «الأزهرُ الشريفُ ودَورٌ جديدٌ بعدَ ثوراتِ الربيعِ العربيِّ»، استعرضتُ فيهِ تاريخَ الأزهرِ الشريفِ، ومواقفَ شيوخِه وعلمائِه في وجهِ التدخُّلاتِ الأجنبيَّةِ في المنطقةِ، وفي نشرِ الاعتدالِ والوسطيَّةِ، ونوَّهْتُ بصفةٍ خاصَّةٍ إلى مواقفِ فضيلةِ الإمامِ الأكبرِ الدكتورِ أحمدَ الطيِّبِ لوضعِ مشيخةِ الأزهرِ في المكانِ الَّذي يليقُ بها؛ لتحمُّلِ مسئوليَّاتِه في قيادةِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ في هذهِ الظروفِ الصَّعْبةِ.

وقد سرَّني في هذا السياقِ أنْ تأتيَ محاورُ المؤتمرِ الأربعةُ وعناوينُها الفرعيَّةُ مُغطِّيةً وشاملةً لأهدافِ المؤتمرِ.

نحنُ العربَ نعيشُ في منطقةٍ تَزخَرُ بالتنوُّعِ الإثنيِّ والدينيِّ والثقافيِّ، بعدَ نصفِ قرنٍ من الاستقلالِ، علينا أنْ نعترفَ بأنَّنا فشِلْنا في أنْ نبنيَ مجتمعاتٍ ودولًا حقيقيَّةً، وأمضينا جُلَّ الوقتِ في التقاتلِ العربيِّ البينيِّ والنزاعاتِ، والآنَ ندفعُ ثمنَ ذلكَ تراجعًا وعودةً إلى سياساتِ المحاورِ والتكتُّلاتِ بينَ الدولِ العربيَّة،

ونَغرَقُ في مواجهةِ التدخُّلاتِ الأجنبيَّةِ وانتشارِ التَّياراتِ المتشدِّدةِ والمتطرِّفةِ وانحسارِ القوىٰ الَّتي تتميَّزُ بالقوَّةِ والمرونةِ والاعتدالِ.

سأكتفي في هذه الورقةِ بالتَّركيزِ علىٰ الجزءِ الخاصِّ بدرءِ مخاطرِ التفكُّكِ والانقسامِ من المحورِ الرابعِ الخاصِّ بالمشاركةِ والمبادرةِ.

٢- الحِقبةُ الاستعماريَّةُ وأثرُها التفكُّكيُّ الانقساميُّ:

بعدَ انهيارِ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ وما رافقَها من ممارساتٍ شَهِدَتْ بداياتِ الثَّوراتِ العربيَّة، جَسَمَ الاستعمارُ الغربيُّ علىٰ المنطقةِ، ووَرِثَ أملاكَ الإمبراطوريَّةِ العثمانيَّةِ، وتقاسَمَها وأوسعَ المنطقةَ تفتيتًا وتقسيمًا وزراعةً للفتنِ بينَ أبنائِها، حتىٰ تَسهُلَ السيطرةُ عليها -سياسةُ فَرِّقْ تَسُدْ- فنَشِطَتِ الثَّوراتُ والحركاتُ العربيَّة؛ لمحاربةِ الاستعمارِ، فتوحَّدَ الثُّوَّارُ نحوَ هدفِ إخراجِ المستعمرِ.

نجحتِ الثوراتُ العربيَّة بشقَّيْها المدنيِّ والعسكريِّ في إخراجِ المستعمِرِ، لكنَّ المستعمرَ الَّذي خرج شكلًا خلَّفَ وراءَه في المنطقةِ إرثَه من حدودٍ قُطْرِيَّةٍ هي نفسُها أداةٌ لاشتعالِ الحروبِ، ومن تحريضٍ للمجموعاتِ السكَّانيَّةِ بعضِها علىٰ بعضٍ، ومن بنيةٍ تحتيَّةٍ تفتقرُ إلىٰ كلِّ شيءٍ؛ فحملتِ الدولةُ العربيَّة الحديثةُ منذُ استقلالِها بذورَ الانقسامِ والتفكُّكِ والضعفِ.

٣- الحركاتُ القوميَّةُ واليساريَّةُ المدنيَّةُ والعسكريَّةُ الَّتي أعقبتِ الاستقلالَ، وأثرُ دعَواتِها، وأهدافُها علىٰ الأمنِ والاستقرارِ في المنطقةِ:

ارتفعتِ الدعَواتُ القوميَّةُ أثناءَ النضالِ ضدَّ المستعمرِ، وبعدَ خروجِ المستعمرِ ووصولِها للحكمِ، فاتَّسعَ المدُّ القوميُّ والدعوةُ للوَحدةِ العربيَّةِ، ورغم أنَّ الهدفَ كانَ نبيلًا لتوحيدِ الشعوبِ العربيَّةِ لغةً وثقافةً وأرضًا وحُكمًا، إلا أنَّ هذه الدعَواتِ أخافتِ القوميَّاتِ الأخرىٰ غيرَ العربيَّةِ في المنطقةِ، وألَّبت العدوَّ الخارجَ؛ ليَنسُجَ ويُحكِمَ خيوطَ مؤامراتِه في المنطقةِ، مستفيدًا من هذه القوميَّاتِ، ومنْ هشاشةِ الدولةِ الوطنيَّةِ الحديثةِ، فانعكسَ ذلكَ علىٰ الأمنِ والاستقرارِ في المنطقةِ؛ فاشتعلتِ الحروبُ بواسطةِ هذهِ القوميَّاتِ الإثنيَّةِ، وأصبحتْ مدخلًا للتدخُّلاتِ الأجنبيَّةِ في المنطقةِ.

٤- الحركاتُ الإسلاميَّةُ الَّتي أعقبتْ هزيمةَ ١٩٦٧م، وهزائمُ فلسطينَ، وأثرُ شعاراتِها علىٰ النسيجِ الاجتماعيِّ في المنطقةِ:

بعدَ هزيمةِ يونيو حزيران ومِنْ قبلِها الهزائمُ المتكررةُ للجيوشِ العربيَّةِ في فلسطينَ بدأتِ الجماهيرُ العربيَّةُ تَفقِدُ الثقةَ في الشعاراتِ القوميَّةِ واليساريَّةِ، وحدثَ فراغٌ كبيرٌ.

نَشِطَتِ الجماعاتُ الإسلاميَّةُ في مَلءِ هذا الفراغِ، ورفعتْ شعارَ أنَّ الإسلامَ هو الحلُّ، وأنَّ الجهادَ وحدَه هو القادرُ علىٰ تحريرِ فلسطينَ.

انحازَ قطاعٌ واسعٌ من الجماهيرِ العربيَّةِ خلفَ هذه الشعاراتِ؛ أملًا منها أنَّها ستنجحُ في تحريرِ فلسطينَ واستعادةِ الكرامةِ العربيَّةِ، وتجلَّىٰ هذا الانعطافُ الجماهيريُّ في ثَوراتِ الربيعِ العربيِّ، إلا أنَّ هذه الحركاتِ والجماعاتِ لم تكنْ مُهيَّأةً

للحكمِ، وتوحيدِ القوىٰ الوطنيَّةِ، وطرحِ برامجَ للدولةِ الوطنيَّةِ، واصطدمت شعاراتُها مع شعاراتِ الحداثةِ، وحدث شرخٌ عميقٌ في المجتمعاتِ العربيَّةِ، ولم تنجُ منه فلسطين.

وما زالت المجتمعاتُ العربيَّةُ تُعاني من هذه الشروخِ العميقةِ الَّتي غاصتْ إلىٰ صفوفِ الجماهيرِ، وأثَّرتْ علىٰ النسيجِ الاجتماعيِّ، وعملتْ علىٰ خلخلتِه.

٥- قضيَّةُ فلسطينَ وانعكاساتُها علىٰ الاستقرارِ في المنطقةِ:

تظلُّ القضيةُ الفلسطينيَّةُ قضيَّةَ حقٍّ مُغْتَصَبٍ، وسيظلُّ الشعبُ الفِلَسطينيُّ مدعومًا بالشعوبِ العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، وتلكَ المحبَّةُ للسَّلامِ تناضلُ من أجلِ استردادِ هذا الحقِّ، واستمرارُ القضيَّةِ بالحالةِ الَّتي عليها هو استمرارٌ لحالةِ الظلمِ والعدوانِ، وكلَّما تجاهلَها المجتمعُ الدوليُّ تولَّدت حركاتُ التطرف والإرهاب في مجتمعاتِنا العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، مستغلَّةً هذه الحالةَ، وحالةَ اليأسِ الَّتي استقرَّتْ عند الكثيرينَ من الحكَّامِ والشعوبِ.

العربُ غيرُ موحَّدينَ علىٰ كيفيةِ مواجهةِ هذه الحالة، ومن أسبابِ عدمِ التوحُّدِ الانقسامُ الداخليُّ الفلسطينيُّ، وازدواجيَّةُ المعاييرِ الَّتي يُمارسُها المجتمعُ الدوليُّ، والوهْنُ الذي أصابَ الجسمَ العربيَّ، ما لم يتمَّ الوصولُ إلىٰ حلٍّ عادلٍ للقضيةِ الفلسطينيَّةِ فمن المستحيلِ أن تشهدَ المنطقةُ أمنًا واستقرارًا، بل ستظلُّ المنطقةُ بؤرةً للتطرُّفِ والإرهابِ الَّذي لن يَقتصِرَ علىٰ المنطقةِ، بل ستمتدُّ تداعياتُه إلىٰ تهديدِ السِّلمِ والأمنِ الدوليَّينِ.

٦- الانقسامُ العربيُّ والتمدُّدُ الإقليميُّ والتدخُّلُ الخارجيُّ، وأثرُ ذلكَ على الاستقرارِ والأمنِ في المنطقةِ:

الحالةُ الَّتي يشهدُها المجتمعُ العربيُّ رسميًّا وشعبيًّا من تشتُّتٍ وانقسامٍ لا تَسُرُّ صديقًا، مواقفُ متباينةٌ من اليمنِ إلى سوريا إلى العراقِ إلى ليبيا، ناهيك عن التمدُّدِ الإيراني التركيِّ في المنطقةِ بشكلٍ لم يحدثْ له مثيلٌ في العصرِ الحديثِ، والالتهامِ الإسرائيليِّ للأرضِ الفلسطينيةِ عبرَ سَرَطانِ المُستَوطَناتِ، وتراجعِ القادةِ الإسرائيليينَ عن حلِّ الدولتينِ، والتدخلِ الخارجيِّ الروسيِّ الأوروبيِّ الأمريكيِّ بشكلٍ مُلفتٍ للنظرِ في سوريا وليبيا وغيرِهما في ظلِّ غيابٍ تامٍّ للدَّورِ العربيِّ.

هذه الحالةُ سببٌ أساسٌ فيما تَشهَدُه المنطقةُ من مآسٍ وظهورِ حالاتِ التطرُّفِ والإرهابِ، ولا بدَّ من مواجهةِ هذه الحالةِ بشجاعةٍ، ووضعِ الأسسِ اللازمةِ لذلك.

٧- كيفَ ندرأُ الانقسامَ والتفكُّكَ؟

١- الدولةُ المدنيَّةُ والحكمُ الرشيدُ: لأكثرَ من خمسينَ عامًا بعد الاستقلالِ لم نتمكنْ حتى الآنَ من بناءِ الدولةِ المدنيَّةِ القائمةِ على الحكمِ الرشيدِ، وذلكَ لانشغالِنا بالخلافاتِ الداخليَّةِ، والإرثِ الثقيلِ الذي خلَّفَهُ الاستعمارُ؛ فالدولةُ المدنيَّةُ هي دولةُ القانونِ، الَّتي تَبسُطُ العدلَ والحريَّاتِ، وتؤمنُ بالتداولِ السلميِّ للسلطةِ والعدالةِ الاجتماعيَّةِ، وتوفِّرُ فرصَ العملِ للشبابِ، وتعملُ على محاربةِ الفقرِ

ومكافحةِ الفسادِ -هي دولةُ القيمِ والأخلاقِ واحترامِ الأديانِ والمؤسَّساتِ، وهي دولةُ المجتمعِ المدنيِّ الفاعلِ النَّشِطِ المشاركِ.

ورغم قناعتي بأنَّ الديمقراطيةَ هي الَّتي ستسودُ، وأنَّ الحكمَ الشموليَّ إلى زوالٍ، غيرَ أنَّني مقتنعٌ تمامًا بأنَّ الحكمَ الرشيدَ ليس مرتبطًا بهذا أو ذاك، بل بالأسسِ الَّتي يقومُ عليها، والمجتمعِ الذي يُحاسِبُ ويُراقِبُ؛ فهتلر في ألمانيا أتى عَبرَ الديمقراطيَّةِ وصناديقِ الاقتراعِ، وعمرُ بنُ الخطابِ الَّذي لُقِّبَ بالخليفةِ العادلِ، وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الَّذي سُمِّيَ بالخليفةِ الراشدِ الخامسِ لم يأتيا بالديمقراطيةِ، والرَّئيسُ الأمريكيُّ الحاليُّ أتى عبرَ الديمقراطيَّةِ، وقد تأتي «مارين لوبين» في فرنسا عبرَ الديمقراطيَّةِ؛ فالديمقراطيَّةُ وسيلةٌ وليست غايةً.

٢- تجاوزُ الفكرِ القوميِّ المتطرِّفِ، والاعترافُ بالمجموعاتِ العرقيَّةِ والدينيَّةِ وبحقوقِها الثقافيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسياسيَّةِ، والعملُ على تأسيسِ مجتمعٍ متعدِّدٍ، متنوِّعٍ، متسامحٍ، متعايشٍ، يكونُ التنوُّعُ مصدرَ قوةٍ ومَنَعَةٍ للنسيجِ الاجتماعيِّ، وليسَ مصدرَ ضعفٍ وتفكُّكٍ.

٣- محاربةُ التطرُّفِ والعنفِ ليس فقط باستخدامِ القوةِ، ولكن بالعملِ والدعوةِ إلى الوسطيَّةِ والاعتدالِ، والتعايشِ بين المذاهبِ والأديانِ والحضاراتِ، وتعزيزِ قِيَمِ الوطنيَّةِ وإعلائها.

٤- مستحيلٌ أن تهنأَ المنطقةُ بالأمنِ والاستقرارِ والحقُّ الفلسطينيُّ مسلوبٌ، والشعبُ الفلسطينيُّ مُشرَّدٌ في أنحاءِ المعمورةِ؛ لذلك لا بدَّ من إعادةِ الاهتمامِ

للقضيةِ الفلسطينيةِ ومركزيتها، بدءًا بالمصالحةِ الفلسطينيةِ، ثم العملِ على حلٍّ عادلٍ للقضيةِ الفلسطينيةِ.

٥- توحيدُ المواقفِ والرؤى العربيَّةِ ومعالجةُ الخِلافاتِ العربيَّةِ داخلَ الدولةِ العربيَّةِ، وبين الدولِ العربيَّةِ، ومواجهةُ التمدُّدِ الإقليميِّ في المنطقةِ العربيَّةِ والتدخُّلاتِ الخارجيَّةِ من القُوى الكُبرى، والعملُ على حمايةِ المصالحِ العربيَّةِ، والتَّعاونُ الإقليميُّ مع دولِ المنطقةِ القائمُ على الاحترامِ المتبادلِ، وعدمُ التدخُّلِ في الشئونِ الداخليَّةِ، وتبادلُ المصالحِ، والمساهمةُ في الأمنِ والاستقرارِ الدوليِّ من خلالِ الانخراطِ الإيجابيِّ في معالجةِ المشكلاتِ العالميَّةِ، مثلُ محاربةِ الإرهابِ والتطرُّفِ والجريمةِ العابرةِ، ومكافحةِ المخدِّراتِ، والمشاركةِ في إرساءِ دعائمِ مجتمعٍ دوليٍّ قائمٍ على الاحترامِ، وتبادلِ المنافعِ، والتجارةِ الدوليَّةِ وَفقَ خُطَّةِ التنميةِ الدوليَّةِ المسمَّاةِ: S.D.G 2030 .

٦- الإعلامُ: السِّلاحُ النوويُّ الجديدُ، ودورُه في حمايةِ المجتمعاتِ وتماسكِها، أو في تقسيمِ المجتمعاتِ وتفكيكِها وزيادةِ حدَّةِ التطرُّفِ والعنفِ والتعصُّبِ والكراهيةِ؛ فلا بدَّ من الاهتمامِ بالإعلامِ والإعلاميِّينَ، تدريبًا وتأهيلًا وتثقيفًا، وتوفيرًا للبيئةِ الصالحةِ الَّتي يعملُ فيها؛ حتَّى يكونَ لدينا سلاحٌ إعلاميٌّ نستغلُّه في المحافظةِ على وَحدةِ مجتمعاتِنا وتَماسُكِها.

واللهُ وليُّ التوفيقِ.